في «الحب»

للأستاذ إبرهيم عبد القادر المازني

— ١ —

« يا أخي ، أقول لك الحق وأمري إلى الله ، أنا لا أعرف الحب ، ولا أستطيع أن أحب ، ولم يخلقني الله لأحب ، فأنا على الأرجح مخلوق ممسوخ ، أو هذه الخلائق هي المسيخة إذا صدق ما يزعمون عن الحب وما يعانون من تدليهه ؟ »

فهز صاحبي رأسه مفكراً وسألني : « وابراهيم الكاتب؟ »

فقلت : « ابراهيم الكاتب مخلوق لا حقيقة له ... أنا الذي خلقته ، فانا كنت لم أحسن خلقه فاعذرني ، فانها أول تجربة لي في « الخلق » . ومع ذلك أدر عينيك في الغادين علينا والغاديات والرائحين والرائحات ، وتدبر نفوسهم إذا استطعت ، واعذرني ! وأحسبك تريد أن تزعم أني وصفت حب ابراهيم هذا ، أو معاشقه ، وأن هذا وصف خبير . ربما ! الحقيقة أني نسيت حكاية ابراهيم هذا ، ولكني واثق أن عقله لم يطر من الحب ، وليه لم يُزدهف ، وأنه كان يعرف القيمة الحقيقية لكل واحدة ممن أحب ، وكان يستطيع أن يكبح نفسه ويصرفها »

وصعبها وسهلها ، وشجرها وزرعها ، وبرّها وبحرها ، يبدو للسائر هنا في كل خطوة ، بل لست أدري أأقول : هنا جهاد الانسان والخليقة أو اصطلاحهما على العمل والسعادة ؟

ولا أنس جلسة في العشيّ ونحن عائدون إلى الفندق وقد جلل الضباب الخليقة ، وأطبقت السحب وأسفّ بعضها دون القمم ، وتنابت على العين قمم الجبال تسيل منها النضرة والجمال على السفوح ، والمساكن والفنادق منثورة في هذه المرائي المدهشة ! منظر لا يمكن وصفه ، ولا يدركه إلا من يراه !

لا ينقص هذا الجمال إلا أن تكوني أنت وأخواتك معي فأري دقائقه بأعينكن ، وأسمع بيانه البليغ من أفواهكن . فليت ثم ليت !

« جلشتر » عبد الوهاب عزام

فكابر بالخلاف ، فتركت له الصفقة ، إيثاراً للراحة من عناء الجدل الذي لا طائل تحته ، وأردت أن أستطرد عن هذا الموضوع إلى سواه ، فأبى أن يدعني أهرب ، فدار بي فعاد إلى الحب ، فقلت له : « إني أراك جائعاً » قال : « جائع ؟ أبداً » قلت : « والله جائع ، ومتضور أيضاً ... » ووضعت إصبعي على قلبه : « هنا فراغ أسميه أنا جوعاً ، فأنت لهذا فيما أرجح ، تجد لذة في الكلام في الحب الذي حرمت ماتتوهمه نعمته . . . اعترف ! »

قال بضحك : « ليتني أكون محباً محبوباً ... الحقيقة ان حياتي صحراء جرداء »

قلت : « اشكر الله ، واسأله دوام هذه النعمة . »

قال : « يا شيخ ، حرام عليك ! »

قلت : « والله إني أريد لك الخير ، أو اسمع ، إذا كان لا بد من هذا ، فأحبب أنت كما تشاء ، فان أمرك يبقى بيدك ، ولكن إياك أن تكون محبوباً من امرأة ، فان هذا هو العذاب الغليظ »

فظنني أمزح ، فقلت : « لا والله . وإني في هذا لأتكلم بلسان الخبير المسكين . هل تصدق أن امرأة في هذه الدنيا يبلغ من قلة عقلها أن تترك الناس جميعاً وتحبني أنا ؟ »

قال : « ولم لا ؟ هذا جائز »

قلت : « جائز ... وهل أنا أتكلم في الجائز وغير الجائز ؟ جائز أيضاً أن تصح ساقي المهيضة ، وتسلم ؛ وجائز أن تطول قامتي وتعرض ألواحي ، وأن أصبح مصارعاً ومن أبطال العالم في هذا الباب ... ولكن تصور عقل هذه الفتاة المسكينة ! وتصور موقفي أنا حيالها ... أنا الذي ليس له طاقة على الحب ولا صبر لي على ما يغري به من الخفقات والسخافات . أقول لها مثلاً ، وأنا أناشدها أن تتوب إلى رشدها: « يا ستي ! يا حبيبتي ! أين ذهب عقلك ؟ » فتترك السؤال ... لا تسمعه في الحقيقة ... وتصيح وتلوح بيديها وتقول : « حبيبتك ! ؟ هذه أول مرة أسمع فيها منك هذا اللفظ الجميل ... أعده على سمعي ... أرجو » فأدهش من سوء التأويل وأقول لها : « يا ستي إنما عنيت ... لم أعن شيئاً في الحقيقة ... مثل قولي يا صديقتي لا أكثر » فتنقلب وتقول « خيبت أملي ! لماذا تأبى علي حتى أن أسعد بلفظ ؟ » فأقول :

« يا ستى والله ما أكره لك السعادة ولا أنا آباها عليك لو كان بيدى إسعادك ؛ ولكنى لا أستطيع أن أكذب عليك ، وعلى نفسى ... هذا الحب شىء لا قبل لى به » فتقول : « ولكنى أريده » فأقول : « إذن التمسيه عند غيرى ... اطلبيه من دكان آخر » فتغالط نفسها وتقول : « أنت هكذا دائماً .. مكابر .. هذا أنت ... بس أريد أن أعرف ماذا تخسر إذا اعترفت ؟ » فأقول : « وكيف أعترف بما لا أحس به ؟ » فتروح تحاورنى وتداورنى ، وفى ظنها أنى أغالطها وأكذب عليها ، أو أن بى كبرا يمنعنى من الاقرار لها بحبها ، وتمسح لى شعرى ... أعنى الشعرات العشر الباقية فى رأسى ... وتربت على كتفى برقة فأضحك ، فتدير إلىّ محياها الدقيق وعلى ثغرها الرقيق اللين ابتسامة سرور ، وفى عينيها ومضة أمل ، فأقول ، وأنا أرد القهقهة التى أحس أنى أوشك أن أنفجر بها: «أترانى لبؤة؟» فتقول « لبؤة ؟ أستغفر الله ! لماذا تقول هذا ؟ أنت عندى ...» فأقاطعها وأقول « وهى هذا ... فانى أعرف منزلتى التى لا تدانيها منزلة . ولكن أن تمسحى لى شعرى ؟ أين هذا الشعر الذى تمسحينه ؟ سبع شعرات ونصف شعرة ! ومع ذلك أقول لك الحق : أنا أستحيى أن أراك تصنعين هذا ... أحس — لا أدرى لماذا ؟ — أنى ارتددت طفلا صغيرا تلاعبينه ... » فتقاطعنى هى وتقول « يسرنى أن ألاعبك .. أن تكون لبتى ! » فأقول : « أما اللاعبة فأنا فيها خادمك المطيع ، تعالى نلعب كما تشائين ... ولكن أن تلعبى أنت بى أنا ... ؟ هذا لا يكون ... لا استكبارا منى ، بل لأن طباعى ، وفطرتى لا تساعد على هذا ... ثم كيف تلعبين بى ؟ أأنا كرة ؟ أم ماذا ! ألا ترين أن هذا كلام فارغ ، وأنا نضيع الوقت فيما لا خير فيه ولا متعة ؟ أولى بنا أن نضحك ، ونلعب ... »

فتعود إلى رأس البلاء وتقول « ولكن لماذا تكره الكلام فى الحب ؟ أليس لدينا ؟ »

فأقول « لست أكره شيئا ، وإنه ليسرنى أن يكون مدار حديثنا على شرط ألا أكون أنا مداره ! ثم قولى لى ، أليس فى عينك نظر ؟ »

فتعبس وتهز رأسها مستفسرة فأقول : « تحبيننى أنا ؟ ياخبر اسود ! وهل خلت الدنيا من الناس فلم تجدى سواى ؟ »

فتطمئن وتضحك ، وتقول « أنت متواضع .. جدا »

فأقول «ياستى والله أبدا ... إن بى كبرا أن يكون بى كبر . ولكن الحقيقة أنك بلهاء أو لا أدرى ماذا بعلك ... »

فتسأل بلا مناسبة : « لماذا لا تحبنى ؟ »

فأقول: « هذا سؤال غريب ... طيب اسمعى .. أنا لا أحبك لأنى لست عدوك ! »

فتصيح : « ايه ؟ »

فأقول : « تمام . الحب فى لغتنا لفظ سقط منه حرف ... كان يجب أن يسمى الحرب ! »

« حرب ؟ »

« أى نعم يا مولاتى ! لأنه ضرب من الجوع »

« جوع ؟ »

« أى نعم مرة أخرى يا مولاتي .. تجوعين فتشتهين اللوخية بالأرانب ، أو الأوز ، وتجوعين جوعاً آخر فتشتهين رجلا ... وأنت تحبين اللوخية ، ولكن ليس بينكما مودة متبادلة ، وإنما العلاقة بينكما علاقة آكل بما كول ؛ وكذلك الجوع الذي نسميه الحب ، فانه ليس أكثر من رغبة فى الاستيلاء على مخلوق آخر أو التهامه إذا شئت . وإذا كان الحب متبادلا فان معنى هذا أن الحرب معلنة من الجانبين — كل جانب يريد أن يستحوذ على الجانب الآخر بأسلحة شتى ، منها النزل والقبل والعناق والضم وغير ذلك من وسائل التليين ... »

قالت : « لا أصدق هذا الكلام الفارغ »

قلت : « سامحك الله . وخذى كلاماً آخر لا تصدقينه ... كما أن الانسان لا يستطيع أن يصبر على طعام واحد ، فلا يأكل سوى اللوخية مثلا ، كذلك لا صبر للانسان على امرأة واحدة. وصدق هذا أو لا تصدقيه ، فأنت حرة ؛ ولكن ثقى أن من يقول لك غير هذا يكون خادعاً أو مخدوعاً : خادعاً إذا كان يدرك الحقائق ، ومخدوعاً إذا كان مثلى يأبى أن يواجهها ، وأنا أعرف منك بالحياة وأخبر . الرجال جميعاً خوانون غدارون — إذا صح أن نسمى غدراً وخيانة ما ليس سوى نزول منهم على حكم الطبيعة »

فقالت بسرعة : « هذا صحيح ... كلهم خائن »

قلت : «لاتعجلي فالنساء أيضاً مثل الرجال . والطبيعة واحدة يا ستي ! » فلم تقتنع يا أخي ، وقد تعبت ومللت ، وخطر لي مراراً أن أتركها وشأنها ، ولم أكتمها أني ضجرت من هذا الحب ، ولكني أشفق عليها وإن كان هذا الحب منها يغيظني ويحنقني . وما ذنبها إذا كانت لا تستطيع أن تدرك هذا الذي أبينه لها ؟ ؟ ثم إن عقولهن غير عقولنا — نحن الرجال عقولنا في رءوسنا ، أو نحن على الأقل نتوهم ذلك ، أما النساء فعقولهن ليست في رءوسهن — هذا محقق — وقد قلت هذا مرة ، فثارت علي فتاة ذكية جميلة مثقفة وسألتني وهي محنقة « أين إذن عقل المرأة إذا لم يكن في رأسها ؟ » فحرت كيف أجيب ، وكان الجواب حاضراً ولكن الافصاح عنه لاسبيل إليه ، وألهمني الله أن أخرج من المأزق بقولي « عقولهن في قلوبهن » فأرضاها هذا التعبير الحسن عن معنى بعده الجهلة سيئاً وما هو بسيء ، وإنما هو الطبيعي . فكيف تريد مني وهذا تصوري للأشياء أن أعرف الحب كما تريد النساء والشبان أن أعرفه ... خيالات وأوهاماً وأباطيل ما أنزل الله بها من سلطان ، ووفاء وحفاظاً إلى آخر هذا الهراء الذي لا يكون ؟ ؟

فهز رأسه متعجباً ، ولم يقل شيئاً ، فحمدت الله ، واغتنمت فرصة سكوته واستأذنت في الانصراف

ابراهيم عبد القادر المازني

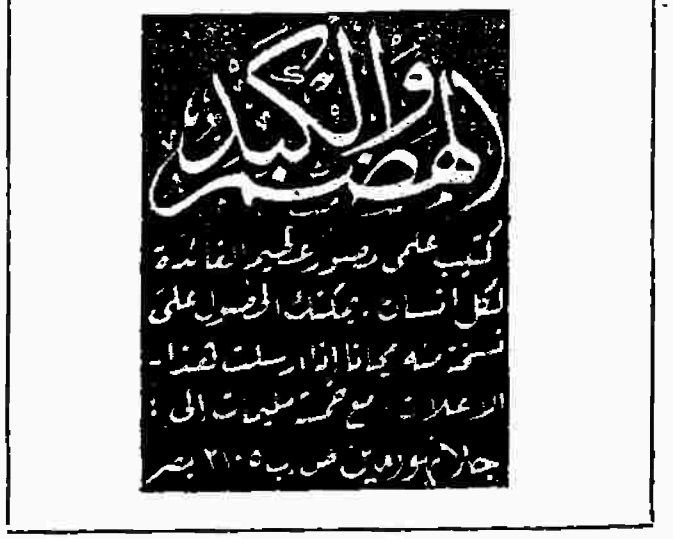

الدين والأخلاق

بين الجديد والقديم

لأحد أساطين الأدب الحديث

— ٤ —

لو أن الأستاذ النمراوي فحص عن أخلاق أمة من الأمم في نفوس آحادها لوجد اتفاقاً أو شبه اتفاق في خصائص تلك الأمة. ولا نعني بالخصائص أنها تفردت بأخلاق لا يوجد مثلها في أمة أخرى، فان الأخلاق شائعة في النفوس البشرية، وإنما نعني أن تلك الأخلاق أكثر شيوعاً فيها بالرغم من تفاوت نفوس آحادها في خصال الحمد والذم والخير والشر، ويستوي في تلك الخصائص من يقرأ فلسفة هربرت سبنسر ومن يقرأ كتب الغزالي، ومن يقرأ شعر شكسبير ومن يقرأ شعر المتنبي ، فان تلك الخصائص المتوارثة لها عدوى تذيعها في البيئة الواحدة وهي راسخة لا تغيرها أيام ولا سنوات قليلة ، وأسبابها حوادث وشرائع اجتماعية ظلت تؤثر في الأمة زمناً طويلا .

فاذا نظر إلى أخلاق البيئة المصرية وفحص عنها على ضوء هذه الحقيقة وجد أن الخصائص الخلقية شائعة يشترك فيها العظيم والحقير، ويشترك فيها الشيخ والأفندي كما يشترك فيها الفلاح وساكن المدينة بالرغم من التفاوت الظاهري في العادات وفي مقادير رسوخ هذه الخصائص أو المقادير التي تظهر بها وإن كان التشابه في مقاديرها الكامنة أعظم . وأوجه الاختلاف الظاهري تظل ملازمة للمرء ملازمة كبيرة وإن حاول أن يحول بعض خصائص نفسه إلى جانب المقادير المقهورة التي يخفيها في النفس إذا انتقل من طائفة إلى طائفة أخرى من طوائف الأمة؛ فالفلاح إذا ألبسته طربوشاً أو قبعة لا يخلع خصائصه ولا يستطيع خلعها ويبقى فلاحا بخصائصه ، ولكنه ربما حاول أن يخفي بعض تلك الخصائص في نفسه .

والمذهب الجديد في الأدب هو إلى حد كبير كالطربوش أو القبعة التي يلبسها الفلاح ؛ والمذهب الجديد كما أوضحنا قد تأثر